

كريمة الصقلي: ظاهرة أطلسية

سيار الجميل

قبل أربع سنوات، طرق سمعي صوت شجي من إحدي محطات الراديو، وأنا في سيارتي بإحدي البلدان العربية.. وعجبت جدا من صوت أطرمني تماما في زمن كسيح افتقدنا فيه حقا إلي الطرب الحقيقي ! تابعت كي اعرف من تكون صاحبة ذلك الصوت الرخيم، فقيل لي انه صوت قادم من المملكة المغربية.. كنت اذكر، ولم أزل، أيام إقامتي الجميلة في تلك البلاد الأطلسية الرائعة قبل أكثر من ربع قرن، عندما كنت أستاذًا زائرا في جامعة الحسن الثاني بكازابلانكا، وكم وجدت عناية خاصة من لدن الملك الراحل الحسن الثاني (رحمه الله) بالفن الموسيقي والطرب والثقافة، بل وكان هناك علي الساحة المغربية قبل قرابة ثلاثين سنة طبقة متميزة من الفنانين والمطربين الذين تتلون أساليبهم وترتقي مناهجهم مع روعة أدائهم نسوة ورجالا .. كان تراث المغرب العربي غنيا بالتواصل مع عظمة الأندلس وبقايا الأندلسيين، ولم يزل المغرب الأقصى، له ثراؤه وقوة منابعه وتعدد مدارسه.. لم استغرب أن يبرز بين حين وآخر نخبة من المطربين والفنانين الموسيقيين، واغلبهم لهم بداياتهم الصعبة علي أساليب الغناء الأندلسي الجماعي، والموشحات الجميلة، والمحليات المغربية المتنوعة، فمنهم من يبقي علي أسلوبه المحلي المغربي مثل المطربة القديرة نعيمة سميح، ومنهم من يجيد الطرب العربي وخصوصا في تأدية روائع مصر القديمة مثل المطربين الكبارين عبد الوهاب الدوكالي وعبد الهادي بلخياط.. وكنت استمع إلي جميعهم بعناية كبيرة، وبالرغم من صعوبة فهم بعض التعبيرات باللهجة المغربية الدارجة، إلا أن زمن إقامتي هناك قد علمني كيف اتقبل تلك اللغة الجميلة المغناة ..

تكوين القدرات الفنية:

تذكرت كل هذا وذاك، وأنا ازداد شغفا لسماع هذا الصوت الأطلسي الهادر القادم من العاصمة المغربية .. الرباط، ثم بدأت اعرف الكثير عن صاحبه السيدة كريمة الصقلي، فهي فنانة مثقفة حقيقية تعشق الغناء منذ صغرها، وقد طفقت تغني وهي طفلة لا يتجاوز عمرها تسع سنوات، بل وأنها قد تربت في عائلة مثقفة ومحافظة . لقد تفوقت كريمة في بداياتها الأولى بتأدية أغنيات ام كلثوم الصعبة.. وبقيت تؤدي وصلاتها لنفسها بين الجدران، وتتمرن علي أصعب اللزمات الصوتية، وكلما امتد بها الزمن، ازدادت مساحة صوتها، واتسعت أنفاسها، وطابت عذوبة حنجرتها، ونجحت في استهلالاتها الصوتية وقلاتها الرائعة.. وانطلقت

انطلاقتها الهادئة الحقيقية مع روائع المطربة الراحلة أسمهان، فكان أن أجادت الأداء، ليس بتقليدها، بل بإتباع نهجها، علي عكس كل من قام بتقليد أسمهان منذ أكثر من خمسين سنة علي رحيلها المحزن.. ان من يقارن بين أداء أسمهان وطريقة كريمة، سيدجد أن الأخيرة لها القدرة علي التميز والإبحار في عالم أسمهان من دون أن تكون نسخة طبق الأصل منها، ولكن أجدها في قارب أطلسي خاص بكريمة، وهو يعوم بكفاءة في البحر علي غير قارب اسمهان الذي حطمته بنفسها رحمها الله، فخسرت ثقافتنا وأجيالنا ما كان منتظرا منها لزمن أت !

لقد كان من حسن الحظ - أيضا - أن أجد أمامي كريمة الصقلي وهي تؤدي واحدة من روائع ام كلثوم في باريس، فكان أن أجادت أغنية (حلم) إجادة فائقة، بحيث كانت تسيطر علي التموجات النغمية من خلال المساحة الصوتية الواسعة التي تمتلكها، وهي قادرة علي أن تكون هادئة وسريعة في آن واحدة، بحيث يمكننا القول أن مثل هذا الأداء لا يمكن أن يتعلمه صاحبه في معهد او كلية او مدرسة للأغنام والطرب، بقدر ما هو موهبة يتحكم فيها صاحبها بعد إعداد وتمرين وبروفات ..

لماذا كريمة الصقلي ؟

كريمة الصقلي.. اكتب عنها لأنني اعتبرها اليوم هي الوريث الشرعي الوحيد للنهضة الطربية العربية التي عاشها العرب في القرن العشرين من دون مبالغة أبدا.. ولكونها سيدة حقيقية للطرب العربي اليوم بعد رحيل جيل العمالقة العرب الذين سيذكرهم التاريخ بأحرف من نور ! كريمة الصقلي لا يريدون لها أن تشتهر وتذاع كل أغنياتها كونها لا تصفق لهذا الزمن الأجوف الذي يعيش فوضي عارمة في بلادة الألحان، وتيبس للأصوات، وهزال في الكلمات ! وهناك من يخرج علينا ليتفلسف بقوله ان كريمة لا تعرف الا تقليد الآخرين، من دون ان يدرك أمثال هؤلاء الذين فسدت أذواقهم، وبارت تجارتهم، وضعفت قيمهم الثقافية العربية.. ان كريمة الصقلي تتفوق علي اللحن مهما كان رائعا.. لقد تفوقت في أداء الحان الموسيقار محمد عبد الوهاب وبعض أغنياته بحيث بثت فيها روحا جديدة .. كما تفوقت في أداء بعض أغنيات المطربتين الكبيرتين ليلي مراد وسعاد محمد ..وتبقي حصة الأسد من نصيب أغنيات أسمهان، فلقد تفوقت كريمة بقوة أدائها، وروعة شخصيتها، وسحر حضورها.. فضلا عن إجادتها أداء الجمل اللحنية الصعبة وبصوت رخيم غاية في الجمال.. إن مساحة صوتها العريضة تجعلها قادرة علي الانطلاق اوبراليا علي المسرح وبإحساس شرقي دافئ !

روائع بانتظار صوت كريمة الصقلي

أريد القول أن ليس العبرة بانتقاد أي مطرب أو مغني يعيد أداء العديد من المقطوعات الغنائية القديمة.. من دون أن يدري أن ما أنتجه القدماء من روائع ومبدعات، لا يمكن لها أن تموت أبدا، وكنت أتمني لو ظهرت كريمة الصقلي في زمن محمد القصبجي، لوجدت نفسها علي غير ما تجده اليوم، بما لديها من قدرات اوبرالية

يفتقدها الجميع اليوم.. إنها لم تستغل حتي يومنا هذا تلك القدرات الرائعة.. إنني اطلب منها أن تقوم بأداء كل إبداعات محمد القصبجي الصعبة، وبالأخص رائعة أم كلثوم (رق الحبيب) ورائعة أسمهان (يا طيور)، ومن المحتمل أنها قد ادتهما، ولكن لم نسمع بهما ! هنا، أريد التشديد عليها لتأديتهما.. وأنا واثق تمام الثقة انها ستنتصر انتصارا حقيقيا للفن الطربي العربي الذي يكاد يموت هذه الأيام علي أيدي أبناء جيل جديد.. وعلي أيدي أناس فرضوا أنفسهم علي ميدان الغناء لأسباب نفعية ومادية، فكانوا كالوباء عليه.. إن الفوضي التي يعيشها المجتمع العربي، ينبغي أن تنتهي نهائيا.. ولكنها لن تنتهي الا من خلال تبلور ظروف مناسبة، وان تتكامل عناصر النجاح من خلال توفر الكلمة واللحن والأداء.

إن بروز صوت كريمة الصقلي التي اعتبرها الآن أفضل مطربة عربية بعد الجيل السابق، يعد ظاهرة استثنائية في محيط لم يعد ينبج العمالقة منذ أكثر من خمسين سنة ! ويكاد المغرب يكون حالة استثناء أطلسية علي طول تاريخ طويل، بسبب خصوصية تاريخه، واستقرار مجتمعه، واستمرارية الحياة فيه منذ عصور خلت علي عكس بيئات عربية أخرى مات فيها كل شيء، وتبيست منها القرائح، وتبعثرت فيها المواهب والطاقات بسبب انقلابياتها وفوضوياتها. فهل باستطاعة كريمة الصقلي مقاومة هذا الوباء الذي يعم مجتمعاتنا باسم الأغنية السريعة أو الفيديو كليب ؟ هل باستطاعتها أن تحتفظ بقدرتها علي الإبداع في عالم يرفض الإبداع الحقيقي، ويهرع للفوضي والزعيق والذوق البليد ؟ هل باستطاعتها أن توسع قاعدتها الجماهيرية علي مر الأيام القادمة.. وهذا ما أتوقع حصوله حتي وان بقيت طوال حياتها تردد إبداعات القرن الماضي، وتعيد إنتاج الأغنية العربية حسب أصولها وقواعدها الحقيقية، لتغدو مدرسة للأخريين وللأجيال القادمة .

الخصائص الفنية

تتميز هذه الفنانة المغربية القديرة بشخصيتها وحشمتها ووقارها، وأيضا بثقافتها ..كما تتميز بقدرتها علي السيطرة علي المسرح الذي تغني علي خشبته.. ومدي حضورها وجذب كل من يحضر حفلاتها أو يستمع إلي أعمالها.. انها تدرك وقع الإيقاعات، فتنناغم مع رفقتها للفرقة الموسيقية التي تصاحبها.. انها تجيد - أيضا - إعادة اللزمات أفضل من الأصل في بعض الأحيان ضمن الكوبليه الواحد.. وهي - كما وجدتها - لها القدرة علي أن تتلاعب وتتموج بصوتها بين المقامات العربية الجميلة، ويساعدها في هذا كله النفس الطويل الذي تمتلكه من دون أن يغدر بها أبدا.. ولم الحظ انها تلحن في الأداء او تنتشر في الغناء، وخصوصا في الطبقات العليا من صوتها، وهي في ذلك تكون منسجمة أفضل بكثير من أدائها ضمن نطاق القرار.. ولكنني واثق أنها قادرة علي تأدية كل الميانات الصعبة (كما نسميها نحن في العراق)، مع صوتها الرخيم، فجمالياته في وسطيته المثلي بين النعومة والصلابة. وعلي هذا الأساس، تمنيت أن يعود القصبجي مع عوده إليها، أو يعود الشيخ زكريا احمد مع نغماته إليها.. أو يعود رياض السنباطي وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب وغيرهم كي يتأملوا في قدرات كريمة الصقلي، وينطلقوا معها إلي آفاق الإبداع كما كان ذلك مع أسمهان وأم كلثوم وسعاد

محمد وليلي مراد وهدى سلطان وغيرهن .
وأخيراً، فإن الحياة الثقافية العربية بحاجة إلي تجديد دائم لا يستطيع القيام به إلا من كان مؤهلاً له، وأمنيته
من كل المؤسسات الثقافية العربية الوقوف إلي جانب المبدعين الحقيقيين بدل تهميشهم أو إقصائهم.. إن تربية
الأجيال مهمة صعبة جداً، وخصوصاً علي خصائص الذوق الفنية وتخليصهم من كل هذا الوباء الذي يجتاح
حياتنا. واستطيع القول أن الفنانة كريمة الصقلي ظاهرة أطلسية متميزة مع بدايات القرن الواحد والعشرين.
تحية مباركة لها، وستبقي هي المطربة العربية رقم واحد عندي متمنيا لها كل التآلق والمزيد من الأعمال الفنية
الرائعة..